

العنوان:	آليات طرد الهم عند ابن حزم
المصدر:	مجلة العلوم الإنسانية والتطبيقية
الناشر:	الجامعة الأسمرية الإسلامية زليتن - كليتي الآداب والعلوم
المؤلف الرئيسي:	الدوكالى، نور الدين عاشور أحمد
المجلد/العدد:	ع29
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2016
الشهر:	ديسمبر
الصفحات:	183 - 207
رقم MD:	813882
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، ت. 456 هـ، الفلسفة الإسلامية، الأخلاق الإسلامية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/813882

للاستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب أسلوب الاستشهاد المطلوب:

أسلوب APA

الدوكالي، نور الدين عاشور أحمد. (2016). آليات طرد الهم عند ابن حزم. مجلة العلوم الإنسانية والتطبيقية، ع29، 183 - 207. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/813882>

أسلوب MLA

الدوكالي، نور الدين عاشور أحمد. "آليات طرد الهم عند ابن حزم." مجلة العلوم الإنسانية والتطبيقية ع29 (2016): 183 - 207. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/813882>

آليات طرد الهم عند ابن حزم

(*) الدكتور: نور الدين عاشور أحمد الدوكالي

مقدمة:

الحمد لله، وكفى وصلاة وسلام دائبين دائمين على النبي المصطفى، وعلى أله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، فهذا بحث يتناول مسألة آليات طرد الهم عند ابن حزم حيث اهتم ابن حزم بطرد الهم كوسيلة أخلاق ناجحة لتخليص النفس وتهذيبها من هنا سنهتم بدراسة فكرة طرد الهم عنده؛ فطرد الهم فالطرد هو: ما يوجب الحكم لوجود العلة، وهو التلازم في الثبوت وطرد الشيء إبعاده، والطرد هو إبعاد المكروه، والأذى، كالهَمِّ، والحزن، والغم، وإزاحته عن النفس.

والهم: هو حزن الإنسان بما ناله من الشر؛ وفي هذا أيضا توسط وزيادة ونقصان، والتوسط محمود، والطرفان مذمومان، والتوسط الفاضل فيه هو أن يحزن فيما ينبغي أن يحزن فيه، وبمقدار ما ينبغي، وعلى الوجه الذي ينبغي، والذي ينبغي أن يحزن فيه هو كله شر، وضرر، وكان الإنسان نفسه السبب لوقوعه بسوء أعماله، وتدييره⁽¹⁾.

مشكلة الدراسة: إذا تأملنا واقعا المعاصر نلاحظ أن كثيراً من الناس يعانون من أمراض وأزمات نفسية نتيجة ضغوطات الحياة المختلفة هذه الحياة التي عرفت تغييب شرع الله ﷻ، فانعكس ذلك على نفوس البشر، فانتشرت الأمراض النفسية وتغيرت الكثير من القيم الأخلاقية، وحلت محلها قيم ذات طابع مادي وعلماني، وأصبح الإنسان تحت وهم مؤداه أن السعادة في الملذات الحسية، كما أننا في أمس الحاجة لمثل هذا البحث وخاصة أننا نعيش عصر الهم والحزن العصر الذي طغت فيه الماديات على الروحانيات وكثرت فيه الرذائل وانتشرت عن الأخلاقيات، وانطمست فيه الفضائل، وطفئت فيه العولة بالانفتاح الثقافي والمعرفي، ولذا فإننا في حاجة ماسة إلى مثل هذا النوع من الدراسات في الوقت بالذات.

تساؤلات الدراسة:- هذه الدراسة تأتي للإجابة عن تساؤلات عديدة منها:-

(*) عضو هيئة تدريس بقسم الفلسفة - كلية الآداب - الجامعة الأسمرية الإسلامية .

(1) راجع، ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت لبنان، ط2، سنة 1992م، 619/12، والعامري، السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية، دراسة وتحقيق/ د.أحمد عبد الحليم عطية، دار الثقافة، القاهرة مصر، 1991م، ص115.

1- ما رأي ابن حزم في السعادة الأخلاقية؟ وكيف يمكن أن تتحقق السعادة للنفس الإنسانية؟ وهل السعادة المرجوة تكون بإتباع الفضائل وحدها، أم تكون بالتوجه إلى الله تعالى، والاقتداء بخير الأنام سيدنا محمد ﷺ؟

2- وما هي أمراض النفس؟ وهل لمرض الهم الناتج عن شدة المصائب والانفعالات والاضطرابات النفسية من علاج ودواء؟ وهل بمجاهدة النفس وتركيتها نستطيع الابتعاد عن آفات النفس؟ وكيف يتسنى لنا أن نعالج النفس الإنسانية من هذه الآفة التي تسببها؟

أهمية الدراسة وأهدافها: محاولة تقديم آراء ابن حزم، وإبراز إسهاماته في مجال الصحة النفسية، والأخلاقية وعلاج أمراض النفس، والرقى بها إلى الكمال الحقيقي بالتوجه إلى الله ﷻ حتى تكون نقيّة طاهرة سليمة من كل العيوب والآفات التي تحول بينها وبين رضا المولى ﷻ، وعليه فنحن في أشد الحاجة إلى كشف الستار عن عيوب وآفات أنفسنا حتى نتمكن من علاجها، ومحاولة توضيح مسألة السعادة وطرد الهم بعرض وتحليل آراء ابن حزم المتعلقة بمفهومه مع المقارنة المباشرة بمفهوم الحزن والغم، للتعرف على فلسفة السعادة وطرد الهم، ومدى تأثيره في الحياة اليومية لدى عامة الناس، واما أهداف الدراسة فهي:!

1- إبراز عرض علمي للموضوع إسهاماً منا في إثراء المكتبة العربية بدراسة أكاديمية مستقلة، في فلسفة الأخلاق وإظهار الارتباط الوثيق بين السعادة وطرد الهم والتركيز على مدى ريادة مفكري الإسلام في عرض الآراء والأفكار الفلسفية.

2- التعرف على منهج القرآن الكريم في مجاهدة النفس وتركيتها والتعرف كذلك على منهج ابن حزم في مجاهدة النفس وتهذيبها، وعلاجها. أسباب اختيار الموضوع:

1- نظراً لأهمية فكر ابن حزم في تاريخ الفكر الإسلامي، فقد دفعنا ذلك إلى اختيار هذا الموضوع ولأن موضوع طرد الهم يعد من المشكلات الفلسفية، التي شغلت الكثير،

2- محاولة التركيز على الجانب الأخلاقي عند ابن حزم وانتهاج نهجه في إصلاح الأخلاق وطرد الهم عن النفس، والتأكيد على أن ابن حزم بمفهومه السلبي للسعادة عن طريق طرد الهم كان من الأمور التي لم يسبقه لها أحد، فهو جعل الهم سابق عن السعادة.

3- تسليط الضوء على طبيعة النفس الإنسانية وآفات وعلاجها من الأمراض التي تعترئها والتي تمنعها من الوصول إلى السعادة، وذلك بالإصلاح الخلقي للنفس.

المنهج المتبع في الدراسة: إن طبيعة الموضوع تتطلب منا استخدام المنهج التحليلي المقارن المدعم بالدراسات المقارنة بالدرجة الأولى، بالإضافة إلى ذلك ثم الاستعانة بالمنهج التاريخي الذي يؤدي إلى

تحري الدقة العلمية في عرض الآراء، حتى يتمكن من الدخول إلى أعماق هذه الدراسة، والخوض في جزئياتها، وتحليل ما تشمله من آراء ومواقف، وذلك بالاعتماد على المصادر الأصلية ما أمكن، بغية تقديم بحث أكاديمي.

خطة البحث : يشتمل هذا البحث على مقدمة ومبحثين وخاتمة تتضمن أهم النتائج وأخره قائمة بالمصادر والمراجع.

المبحث الأول: تناولت فيه مفهوم الهم في القرآن والسنة واللغة، ثم الهم في فكر ابن حزم الأندلسي.

المبحث الثاني: تناولت فيه آفة الهم وآليات طرده عند ابن حزم.

المبحث الأول: ما المقصود بطرد الهم؟

لقد اهتم ابن حزم بطرد الهم كوسيلة أخلاق ناجحة لتخليص النفس وتهذيبها والبحث عن سُبُل سعادتها من هنا سنهتم بدراسة فكرة طرد الهم عنده، وسنحاول هنا إلقاء نظرة على معنى الهم. [أ] الهم في اللغة العربية: يعرف الجرجاني الهم بقوله: "الهم هو عقد القلب على فعل شيء قبل أن يفعل خير وشر"⁽¹⁾، ويعرفه أبو البقاء بأنه "اجتماع النفس على الأمر، والإجماع عليه، والعزم هو القصد، على إمضائه، فالهم فوق الإرادة ودون العزم، وأول العزيمة"⁽²⁾، ويقول عنه التهانوي: "الهم هو كيفية نفسانية تتبعها حركة الروح، والحرارة الغريزية إلى داخل البدن، وخارجه لحدوث أمر يتصور فيه وهو خير يتوقع، وشر ينتظر"⁽³⁾.

ابن الهم القرآن الكريم: لقد جاء معنى هم في القرآن الكريم بصيغة الفعل أَهَمَّهُمْ⁽⁴⁾. ويقال: أَهَمَّنِي كَذَا إذا حملني على أن أهتم به، قال ﷺ: «وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ»⁽⁵⁾، أي جماعة قد شغلتهم أنفسهم وحملتهم على الهم، ويعني الهم هنا الغم والحزن، أي حملتهم أنفسهم على الهم والحزن بما يهتم به الإنسان، وعليه فالهم يأتي بمعنى الحزن الذي يؤثر في الإنسان تأثيراً شديداً حتى أنه يقال: رجل هم أي رجل كبير قد همّه العمر، ويأتي بمعنى: ما تهم

(1) الجرجاني، التعريفات، ص172.

(2) أبو البقاء الحسيني، الكليات، تحقيق/ محمد المصري، وعدنان دروش، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ط1، سنة1998م، ص450.

(3) التهانوي، كشف اصطلاحات الفنون، مكتبة لبنان، بيروت لبنان، ط2، سنة1996م، 4/404.

(4) سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، منشورات دار العلم، بيروت لبنان، ط1، سنة1981م، ص1159.

(5) سورة آل عمران الآية (154).

به النفس، أو ما همّت به النفس ورغبت بالقيام به، قال رحمه الله: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا»⁽¹⁾، وقال رحمه الله: «وَهُمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ»⁽²⁾.

لجّ الهمّ الحديث الشريف: لقد جاء ذكر الهمّ في الأحاديث النبوية بمعان عدة، ويحمل دلالات ومضامين شتى منها قوله رحمه الله: «من كان كل همه الآخرة جمع الله شمله»⁽³⁾، وقوله رحمه الله: «ومن جعل الهموم همّاً واحداً همّ آخرته المعاد، كفاه الله همّ دنياه»⁽⁴⁾، وهنا تأكيد على أن جعل الهمّ همّاً واحداً فيما يكون من أمر الدين والدنيا.

ومن خلال ما سبق عرضه لمعاني الهمّ نلاحظ أنه يرد بمعاني قريبة من الحزن، وأنه قد يرد بمعنى مختلف، وهو مبدأ الإرادة، وهذا يتفق في نظرنا مع ما يعنيه ابن حزم بالهمّ في نصّه السابق: "فقلة الهمّ بما يهتم به الناس"⁽⁵⁾، وعليه فإن الهمّ لا يكون إلا بتوقع وقوع أمر سيء أو أن الإنسان يُنبئ بحدوث أمر سيئ كمن أخبره الطبيب بأن هنالك وباء سوف يحل بالمنطقة، ولكن ثمة معضلة كبيرة تعترض هذا الفهم ألا وهي: أنه حينما طرح ابن حزم مفهومه لطرد الهمّ على ما يبدو قد استعمله بضد المعنى السابق، وكأنه شيء محزن، وما يريد كل امرئ إلا إزاحته عن نفسه، مما تبادر إلى ذهننا أنه استعمله بمعنىين مختلفين في رسالته الأخلاقية، ولمعرفة هذا الخلط الذي وقع في مفهوم الهمّ لا بد من الرجوع لما يذكره ابن حزم في رسالته حيث نجده يتحدث عن الهمّ في عدة فقرات، وبصورة مشتتة، وأغلب الأحيان يقصد به مفهوماً مقابلاً جداً للحزن وبمعنى فقدان شخص عزيز أو الندم على ما فات فمن ذلك قوله: "وأشدها إيلاًماً للنفس الهمّ لفقد المحبوب وتوقع المكروه"⁽⁶⁾، وبذلك فإن الغرض الأساسي من طرح هذا المفهوم عند ابن حزم هو: تعزيز النقل بالعقل، ولكن أبرز فكرة دينية سادت كتبه ورسائله هي: فكرة العمل للآخرة، والتي لها علاقة وثيقة بما يذكره أثناء طرحه لهذا المفهوم، وهو يقول: "بحث عن سبل مواصلة على الحقيقة إلى طرد الهمّ الذي هو المطلوب النفيس الذي اتفق جميع أنواع الإنسان الجاهل والعالم الصالح والطالح على السعي له، فلم أجدها إلا التوجه إلى الله تعالى بالعمل للآخرة"⁽⁷⁾.

(1) سورة يوسف، الآية(24).

(2) سورة التوبة، الآية(13).

(3) أخرجه الحاكم الترمذي، في الجامع الصحيح لسننه، تحقيق، إبراهيم عطوة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، سنة1991م، 624/4.

(4) أخرجه ابن ماجة في سننه، تحقيق، فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، سنة1986م، 1375/2.

(5) ابن حزم، الأخلاق والسير، تحقيق/ ايضا رياض، دار ابن حزم، بيروت لبنان، ط3، 2003م، ص76.

(6) المصدر السابق، ص180، ولاحظ أن النص يشبه تماماً نصّ الكندي في رسالته "الحيلة لدفع الأحزان ص6.

(7) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص78.

♦ الفرق بين الهمّ والغمّ:

إن الغمّ لا يكون إلا عند نزول أمر معين ووقوع فعل يسوء صاحبه فيصاب بالغمّ، فنبى الله موسى - عليه السلام - حينما قتل نفساً أصيب بالغم، ويونس - عليه السلام - حينما ترك قومه وذهب مغاضباً لآلئمه الحوت فكان في ظلمات ثلاث فأصابه الغمّ بسبب هذا الأمر الواقع. أما الهم فهو عكس الغم من حيث الوقوع والأثر النفسي، أي: أن الهم لا يكون إلا بتوقع وقوع أمر سيء أو أن الإنسان ينبئ بحدوث أمر سيء؛ كمن أخبره الطبيب بأن هناك وباء سوف يحل بالمدينة أو أنه حينما يبلغ العشرين ستسوء حالته الصحية، أو كمن أراد السفر فيقال له: أن الطريق معرض للصوم، والهم هو ما يصيب القلب من الحزن، والذهن من القلق، ولقد أراد ابن حزم أن يبيّن أن طرد الهم عن النفس هو غاية واحدة لكل الناس، وليس هذا فحسب بل دعم ذلك ليفسر به حركة أفعالهم؛ فالناس "على اختلاف أهوائهم، ومطالبهم، وتباين همهم، وإراداتهم لا يتحركون حركة أصلاً إلا فيما يرجون به طرد الهم، ولا ينطقون بكلمة أصلاً إلا فيما يعانون به إزاحته عن أنفسهم"⁽¹⁾، بيد أن ابن حزم، وضعه بصورة مقتضبة، وهذا بدوره أدى إلى التعقيد في طرحه، وبذلك فهو لم يفلح في الإفصاح عنه، ومما زاد الأمر تعقيداً زعمه بأن طريقتة في طرحه على هذا النحو يُعد من اكتشافه، حيث يرى فيه "أنه علم رفيع، وسر عجيب، وكنز عظيم"⁽²⁾. ولتوضيح الأمر أكثر يجب علينا الاهتمام بالذات وطبيعتها وعلاقتها بطرد الهم فنجد ابن حزم يصنف الذات ويتحدث عنها:

طبيعة الذات وأنواعها: يصنف ابن حزم الذات إلى:

1- الذات العقلية أو النفسية: وقد رتب ابن حزم الذات من الأعلى إلى الأدنى من أنواعها ما يأتي :-
لذة المجتهد لله ﷻ باجتهاده، ولذة الحكيم بحكمته، ولذة العالم بعلمه، ولذة العاقل بتمييزه. نلاحظ هنا أن الذات العقلية تبدأ من أدنى مراتب العقل إلى أعلاه، حتى تصل إلى الغاية القصوى، وهي القرب من الله ﷻ فلذة العاقل بتمييزه الذي هو عام، ومشترك بين البشر ويميز الله به الإنسان عن سائر المخلوقات ثم ترتقي الذات إلى لذة العلم، ثم لذة الحكمة، إلى أن تصل إلى أعلاها مرتبة ألا وهي "لذة العامل للآخرة".

2- الذات الحسية أو الجسمية: فيصنفها ابن حزم بحسب اشتها النفس فتبدأ بلذة الأكل بأكله، والشارب بشربه، ثم لذة الواطئ بوطئه، والكاسب بكسبه، ثم لذة اللاعب بلعبه،

(1) المصدر السابق، ص76.

(2) المصدر السابق، ص78.

والأمر بأمره⁽¹⁾، ولقد سبقت المدرسة الأبيقورية ابن حزم إلى ذلك التقسيم للذات فهي تقسم الذات إلى ثلاثة أنواع منها: ما هو ضروري وخير، وهي الناتجة عن إشباع الحاجات الأولية الكائن الحي ومنها ما ليس ضرورياً، وإن كان خيراً، مثل: التأنق في المأكّل، والمشارب ومنها: ما ليس بخير، ولا ضروري، لأن الميول الطبيعية لا تقصد إليه قصداً، ولا تتطلبه باعتباره شيئاً مكماً لنوازع هذه الميول⁽²⁾، فنلاحظ أن هذا التصنيف يتضمن اللذتين "العقلية والحسية"، ولكن ابن حزم يرى أن اللذات العقلية أفضل من اللذات الحسية، وبرهانه على ذلك "بأن أصحاب اللذات العقلية قد أحسوا وانهمكوا في اللذات الحسية، كما يُحسن المقبل عليها والمنهمك فيها، ولكنهم تركوها، وآثروا طلب الفضائل عليها، وكان حكمهم في ذلك مستمد من معرفة اللذتين "الحسية والعقلية" معاً⁽³⁾، وبطبيعة الحال من عرفهما يكون حكمه أصوب ممن عرف أحدهما، ولم يعرف الآخر⁽⁴⁾، ويتبين لنا مما سبق أن ابن حزم يوحد بين اللذة والخير، وهنا تتجلى النزعة الأفلاطونية عنده، ومن خلال ما ذكره ابن حزم بخصوص اللذات مع إثارته للذات العقلية على الحسية، إلا أنه يرى أن لذة العامل للأخرة من أعظم مراتب العقل، وهذا ليس بغريب على ابن حزم الذي يرى أن حدود العقل لا تتعدى حدود الشريعة الإسلامية، لأن "حد العقل هو استعمال الطاعات والفضائل"⁽⁵⁾، ولذلك نجد أنه ينطلق لإثبات تلك الفرضية ليبين فيها أنه على المرء إذا أراد أن يفكر في الحقيقة يفكر بها من الهم، وهو ما يهتم به الناس"⁽⁶⁾، وبالتالي يكون الهم عنده معظماً من الصديق والعدو، وأما السرور في الآخرة فهو الفوز بالجنة، وهي دار البقاء التي تُعد سعادة بلا شقاء، وغنى بلا فقر، بيد أننا لو صرفنا النظر عن المنظور الديني في هذا النصّ وأمعنا النظر في تحليل مضمونه الفلسفي لاستتجنا حقيقة مهمة مفادها: أن الهم هو السبب الذي يوجه المرء نحو الحرص في الطلب بقدر الاهتمام به، فكلما قل الهم نال السرور، والعكس بالعكس.

❖ السعادة الأخروية: الإنسان الفاضل هو الذي يكون عنده ثبات في الموقف ليصبو إلى الخير دائماً، وذلك أمر لا يتحقق إلا للإنسان الذي اتصف بالسعادة إذ إن الثبات الذي نشده ينتسب إلى الإنسان السعيد، الذي سيظل سعيداً طوال حياته كلها، لأنه يقوم بأفعال وتأملات موافقة للفضيلة،

(1) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص75.

(2) إميل برهيه، تاريخ الفلسفة، ترجمة/ جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، سنة 1981م، 121/2، 122.

(3) ربما يعني ابن حزم بهذا الحديث نفسه، لأن جميع اللذات التي ذكرها هي وليدة تجاربه اليومية، وفي قصر أبيه الوزير.

(4) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص75.

(5) المصدر السابق، ص143.

(6) المصدر السابق، ص76.

فالسعادة الأخروية يقصد بها الأخرى، والآخرة هي دار البقاء، وقد ورد في القرآن الكريم كقوله ﷻ: «وَلِإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ»⁽¹⁾، ولا شك في أن الوصول إلى هذه السعادة يتطلب جهداً شاقاً من الإنسان ولا يمكن إدراكه إلا باكتساب الفضائل، لأن الفضائل تُعد من الأسباب القوية لسعادة الإنسان وفوزه برضا الله ﷻ، وقد نبه الله تعالى إلى ضرورة العمل والسعي من أجل تحقيقها فقال ﷻ: «وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورٌ»⁽²⁾، ومعنى هذا أنه لا مطمع لمن أراد الوصول إليها إلا بالسعي، والسعادة الحقيقية وهي السعادة الأخروية وعليه تكون السعادة الحقيقية كما يرى الغزالي، هي السعادة الأخروية⁽³⁾، وهي الغاية القصوى لعمل المسلم، والأساس في ذلك هو الإيمان بالله، فالإيمان هو الموجه لعمل المسلم، إذ لا يُقبل عمل المسلم إلا إذا كان موافقاً للإيمان ومتطلباته، وإن أي عمل صالح لا تكون له قيمة أخروية إلا استوفى صاحبه شرط الإيمان بالله⁽⁴⁾، فإن أي عمل فاضل لا قيمة له، مع افتقار فاعله شرط الإيمان بالله، فالسبيل الموصلة إلى الحقيقة لطرد الهمّ هي التوجه إلى الله ﷻ بالعمل للآخرة⁽⁵⁾، وعليه تناول ابن حزم مفهوم طرد الهمّ ضمن دراسته الأخلاقية، والثابت من هذه الدراسة إبراز ابن حزم لجانبين أساسيين يمثلان محور علم الأخلاق بالمفهوم الحديث، المتمثل في نظرية الدوافع والسلوك، وهما: جانب نظري يتعلق بتحديد أصول الفضائل، وأنواعها، وجانب عملي: يتعلق بقواعد تطبيق، وممارسة تلك الفضائل والغرض منها معرفة الفضائل، وترجمتها في السلوك علاوة على ذلك إصلاح الأخلاق الفاسدة ومداواة النفوس، ويذهب ابن حزم إلى أنه: "إنما يحكم الشئيين من عرفهما، لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر"⁽⁶⁾، فالمعرفة هنا تتضمن الجانبين النظري التأملي، والعملي التطبيقي، "فإذا تعقبت الأمور كلها فسدت عليك، وانتهيت في آخر فكرتك باضمحلال جميع أحوال الدنيا إلا أن الحقيقة إنما هي في العمل للآخرة فقط، لأن كل أمر ظفرت به فعقباه حزنٌ، إما بذهابه عنك أو بذهابك عنه، لا بد من أحد هذين الشئيين إلا العمل لله ﷻ فعقباه على كل حال سرور في عاجل وآجل، أما العاجل فقلة الهمّ بما يهم الناس، وإنك به معظم من العدو والصديق وأما في الآجل فالجنة"، والمقصود هنا عزة النفس وغناها في العاجل، وعلى الفوز بالجنة في

(1) سورة العنكبوت، الآية(64).

(2) سورة الإسراء، الآية (19).

(3) مابوت، مقدمة في الأخلاق، ترجمة الدكتور، ماهر عبد القادر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ط1، 1977م، ص76.

(4) ابن القيم الجوزية، إعلام الموقعين، مكتبة الكليات الجامعية، القاهرة، ط1، 1986م، ص320.

(5) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص87.

(6) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص75.

الآجل ونجا من الهم، كما أن السعادة الحقيقية هي السعادة الأخروية لأنها تقوم على أساس المنافع المعنوية فجلبها خير، ودفعها شر ودفع الهموم، والأحزان، وهي الآلام النفسية خيراً، ومنذ البداية يرى ابن حزم أن الهم، وطرده عن النفس غاية واحدة يطلبها الناس، وهم يستوون في استحسانه، ويسعون مساعٍ مختلفة في طلبه كلٌ بحسب قدرته وهو الصيغة السلبية للسعادة الإنسانية، وتتصف هذه السعادة بأن قيمتها في ذاتها يقول ابن حزم: "تطلبت غرضاً يستوي الناس كلهم في استحسانه، وفي طلبه، فلم أجد إلا واحداً، وهو طرد الهم فلما تدبرته علمت أن الناس كلهم لم يستووا في استحسانه فقط ولا في طلبه فقط، ولكن رأيتهم على اختلاف أهوائهم، ومطالبهم وتباين همهم، وإرادتهم، لا يتحركون حركة أصلاً إلا فيما يرجون به طرده ولا ينطقون بكلمة أصلاً إلا فيما يعانون به إزاحته عن أنفسهم، فمن مخطئ وجه سبيله، ومن يقارب للخطأ، ومن مصيب، وهو الأقل من الناس في الأقل من أموره"⁽¹⁾، ولقد أكد ابن حزم منذ البداية أن طرد الهم مذهب للناس يسعون إليه لأن فيه خيراً لهم.

ولكن لماذا جعل ابن حزم السعادة مرتبطة بطرد الهم؟ قد جعل ابن حزم السعادة مرتبطة بطرد الهم، وهو الغرض الأقصى لاعتبارين: الأول: أن السعادة هي التعبير المطلق عن الراحة النفسية، والثاني: السعادة أمر مشترك بين داري الدنيا والآخرة، وأن دار الدنيا دار ابتلاء وعمل، لهذا نجد أن الإنسان منشغل بأمور دنياه الفانية المادية، ويتعلق بها، فيألم لفقدها ويصيبه الهم بسببها، فقرر ابن حزم بعد تفكير وتأمل أن السبيل إلى طرد الهم، هو التوجه إلى الله ﷻ بالعمل للأخرة، لذلك فطرد الهم الذي حدده "مذهب قد اتفقت الأمم كلها منذ خلق الله ﷻ العالم إلى أن يتناهى عالم الابتداء، ويعاقبه عالم الحساب على أن لا يعتمدوا بسعيهم شيئاً سواه"⁽²⁾، ومن هنا يتضح لنا أن هنالك علاقة ارتباط بين السعادة والهم، وهنا أثبت ابن حزم وهو المتأمل في أصول الفضائل بعد تمحيص، وتأييد بالمشاهدة أن الناس سواسية في استحسانه، وهذا الغرض هو "طرد الهم عن النفس"، وهم في طلبه يختلفون كل حسب قدرته، وهذه تُعد قاعدة عامة يستخلصها ابن حزم، ويقدم الأدلة التي تؤكد صحتها، لأن الناس في نظره يختلفون من حيث النتائج حينما يطردونه عن أنفسهم، فأكثرهم يخطئون، ومنهم المقاربين للخطأ، أما المصيب عنده فهو الأقل من الناس في الأقل من أموره ولهذا الاعتبار يظل السؤال قائماً، ومن هنا يتحتم علينا تتبع النص الذي أورده ابن حزم حول طرد الهم، فربما ينكشف لنا الغموض الذي يكتفه، ومن ثم يتسنى لنا فهمه وإيضاحه، ولذا يواصل ابن حزم

(1) المصدر السابق، ص76.

(2) المصدر السابق، ص76، ويتضح لنا هنا أن صاحب كتاب الجواب الكافي قد لخص ما يقوله ابن حزم، دون أن يشير إليه أو يذكره، راجع، ابن القيم الجوزية، الجواب الكافي، تحقيق/ زكريا عمران، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، سنة 1997 م، ص193 - 194.

عرضه بأن طرد الهمّ غاية واحدة تتفق مع طبيعة وجود الإنسان ويرى أن طرد الهمّ: مذهب قد اتفقت الأمم كلها منذ خلق الله ﷻ العالم إلى أن يتناهى عالم الابتداء، ويعاقبه عالم الحساب على ألا يعتمدوا البشر بسعيهم شيئاً سواه، ويدلل على ذلك بقوله: "إن هناك مطالب محبوبة يرغب جميع الناس في الحصول عليها، ولكن بعض مطالبهم ما هو مخالف لذلك.

ومن هذا المنطلق يصنف الناس كلاً حسب ما يؤثر في حياته، فهناك من الناس من لا دين له، فلا يعمل للأخرة، وفي الناس من أهل الشر من لا يريد الخير، ولا الأمن، ولا الحق، "وفي الناس من يؤثر الخمول بهواء على بعد الصيت، وفي الناس من لا يريد المال ويؤثر عدمه على وجوده، ككثير من الأنبياء - عليهم السلام - ومن الناس من يبغض اللذات بطبعه ويستقص طالبها من المؤثرين فقد المال على اقتنائه، ومن الناس من يؤثر الجهل على العلم، كأكثر من ترى من العامة، وهذه هي أغراض الناس التي لا غرض لهم سواها"⁽¹⁾، كما يرى ابن حزم أن هذه الغايات هي: غايات للناس جميعاً، ومع اختلاف مطالب البعض عن الكل، إلا أنه ليس هناك أحدٌ أبداً يستثنى.. من أول الخليفة إلى أن يتناهى العالم وجوده فيه أنه يستحسن الهمّ، ولا يريد طرحه عن نفسه⁽²⁾، وتأسيساً على ذلك فإن ابن حزم يقرّ بأن مركز وجود الإنسان في هذا الكون يدور حول محور واحد وهو "طرد الهمّ"، وبالتالي اعتبر بطرحه بهذا النحو أنه: علم رفيع قد استقر في نفسه وانكشف له بذلك سر عجيب، وأن الله ﷻ أنار لفكره كنز عظيم لأنه يعتقد فيه أنه "مطلب نفيس، وجوهري، يشترك جميع أنواع البشر في السعي له، سواء الجاهل منهم، والعالم، والصالح والطالح، على السعي له"⁽³⁾، ويجب علينا هنا أن ننوه إلى أن ابن حزم يحرص، وهو يحدد الغاية العليا من الحياة الأخلاقية على التأكيد بأن طرد الهمّ ليس هدفاً خاصاً بقوم معينين، وإنما هو هدف عام للناس جميعاً، وصالح لكل زمان ومكان، وبالتالي يُعد طرد الهمّ عنده بمثابة قانون عام ينطبق على كل البشر، ومن ثم رأى ابن حزم أن الحقيقة الموصلة إلى طرحه عن النفس، ليست إلا التوجه إلى الله ﷻ بالعمل للأخرة على أنه قبل أن يبرهن عليها يستقري، واقع مطالب حركات وأفعال الناس وهم يسعون لطرد الهمّ، وكل ذلك جعل هذا المفهوم يحمل في طياته دلالات، ومضامين فلسفية عميقة، تستحق الوقوف عندها، للتعرف على مضمونها المعرفي، فلنذهب إلى ما يقوله ابن حزم حول ذلك: "إنما طلب الصوت من طلبه ليطرد عن نفسه همّ الاستعلاء عليها، وإنما طلب اللذات من طلبها ليطرد بها عن نفسه همّ فوتها، وإنما طلب العلم من طلبه ليطرد به عن نفسه همّ الجهل، وإنما هش إلى سماع الأخبار ومحادثة الناس من

(1) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص76.

(2) المصدر السابق، ص 78.

(3) المصدر السابق، نفس الصفحة.

يطلب ذلك، ليطرد بها عن نفسه همّ التوحد ومغيب أحوال العالم عنه، وإنما أكل من أكل، وشرب من شرب ونكح من نكح، ولبس من لبس، ولعب من لعب، وركب من ركب، ومشى من مشى، وتودع من تودع، ليطردوا عن أنفسهم همّ أضداد هذه الأفعال، وسائر الهموم⁽¹⁾، فالعمل لله ﷻ هو الطريق الصحيح للفوز في الآخرة، ولذلك لا يجب على الإنسان أن يبذل نفسه إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله ﷻ وفي دعاء إلى الحق، وتجدر الإشارة إلى أن التوجه إلى الله ﷻ بالعمل للآخرة، الذي جعله ابن حزم سبيلاً لتحقيق الهدف الأخلاقي، وهو السعادة المتمثلة في طرد الهمّ يتضمن العمل بشرع الله ﷻ الذي يحتوي على جميع الفضائل، مع إخلاص النية، ولذلك تُعد الفضائل من الأسباب القوية لسعادة الإنسان، وفوزه برضا الله تعالى، وإذا كانت النفس تأنس بالفضائل، فكيف تحصلها وتكسبها؟

إن تحصيل الفضائل يتوقف على أمور أهمها: العقل، والعلم أما العقل فإنه يساعد صاحبه على السير في طريق الفضيلة، لأنه يستطيع أن يدرك ما تؤدي إليه الفضائل من سعادة وما تؤدي إليه الرذائل من همّ وشقاء، ومن شأن هذا العقل أن يدفع صاحبه إلى فعل ما فيه سعادته وترك ما فيه شقاؤه، خاصة إذا كان مدركاً للأوامر والنواهي الإلهية لأنه عندئذ يكون مسيطراً على قوى الإنسان وغرائزه، يوجهها إلى الطاعات والفضائل، وهذا هو حد العقل، أما العلم فيُعدّ أمراً ضرورياً أيضاً لتحصيل الفضائل، لأنه يعرف الإنسان بطبيعة النفس وملكانها، أو قواها وميولها، فيكون أقدر على التحكم في القوى النفسية الأخرى، وتوجيهها إلى الفضائل، كما نلاحظ أن السعادة عند ابن حزم هي سعادة الآخرة لا سعادة الدنيا الفانية، والاهتمام بها والعمل من أجلها، والتطلع إليها لا يجلب إلا الهمّ، وأن الراحة والطمأنينة تكون بالاتجاه إلى الله ﷻ كلياً، وعلى الرغم من أن ابن حزم ينصح الناس بهذا، إلا أنه لا يعني القطيعة مع الدنيا، بل "يجعلها كالنار، تدنو منها ولا تخالطها"⁽²⁾، ولذلك ينصح بمسايرة أصحاب الفضائل، وأهل المواساة والبر والصدق، وصفاء الضمائر، ويحذر من مسايرة أصحاب الرذائل الخبيثاء من الناس، وجلساء السوء⁽³⁾، ولذا يرى ابن حزم أن من علامات الزهد في الدنيا أن كل إنسان مهما كان، عندما ينام ينسى كل علائق الدنيا، وأن هذه هي السعادة الحقيقية، ولعلها هي المراد بقوله ﷺ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾⁽⁴⁾، وذلك هو الخير المحض والفضيلة⁽⁵⁾، ولكن هذا الطريق ليس سهلاً فهو طريق صعب،

(1) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص78-79.

(2) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص97.

(3) المصدر السابق، ص92.

(4) سورة هود، الآية(108).

(5) الأصفهاني، الذريعة لمكارم الأخلاق والشرعية، دار الوفاء، المنصورة مصر، ط1، سنة 1985م، ص48.

وهذه هي طريق السعادة التي لا يمكن إدراكها إلا باكتساب الفضائل النفسية، وبالتالي يحرز من سلكها صفاء نيات ذوي النفوس السليمة، البراء من المكر والخديعة، ويحوي فضائل الأبرار، ويحصل مع ذلك على سلامة الدهاء، وتخلص الخبثاء ذوي النكره والدهاء⁽¹⁾، وينبغي الإشارة إلى أن هناك فرقاً بين الخيرات الدنيوية والأخروية، وذلك أن النعم الأخروية فهي دائمة إلى الأبد، وأيضاً فإن نعم الدنيا ليست خيراً وسعادة في كل الأوقات، بل أحياناً قد تكون شراً، أما نعيم الآخرة، فهو خير مطلق، وبذلك فإن ابن حزم لم ينكر حرية الإنسان ومسؤوليته عن أفعاله، كما أنه لم ينكر توفير الله ﷻ ومساعدته، لعباده، وبالتالي تتفق مشيئة الله مع حرية الإنسان، ولذلك فإن النعم الدنيوية تكون نعمة وسعادة إذا تناولها الناس على الوجه الذي جعلها الله ﷻ لهم، واتخذوها وسيلة للسعادة الأخروية، ولم يجعلوها هدفهم، أما من يجعلها هدفه، ولا يراعي فيها شرع الله ﷻ فإنها تصبح عليه نقمة، ويعذب بها عاجلاً وأجلاً، ويجدر بنا التنويه كذلك إلى أن الخيرات الأخروية، لا تدرك بالعقل فقط، وإنما تكون بما عليه الإنسان من قدرة على فعل الخير، وهذا ما نجده واضحاً لدى هوبز وبنتم في مذهب المنفعة اللذان جعلوا الفعل الخير هو الذي يحقق السعادة لأكبر عدد من الناس وهذا هو مذهب المنفعة وهذه هي غاية الحياة الخلقية التي ينبغ أن يطمح إلى تحقيقها الأفراد والجماعات الإنسانية معاً وبالتالي تصبح اللذة هي الخير الوحيد كما يصبح الألم هو الشر الوحيد في حياة الإنسان⁽²⁾ فتحقيق اللذة وتجنب الألم يعدان المحرك الرئيسي للإنسان، ولهذا فقد قرب الله تلك الخيرات إلى الأذهان، فشبها بما تدركه الحواس، فقال ﷺ: «مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا»⁽³⁾، وعليه فإن الباحث يرى أن سعادة الآخرة هي الجديرة بالسعي والعمل لها، ولا ينبغي للإنسان أن يبتس إذا حُرِم من نعيم الدنيا، لأن الله ﷻ سيعوض له بنعيم الآخرة وهو الفوز بالجنة، والحقيقة هي أن الإنسان إذا قصد وجه الله ﷻ واتجه بعمله للآخرة، بمعنى أنه يحرص على عمل ما ينفعه في الآخرة، فإنه لا يعبا بالأمر الدنيوية التي تكون مبعثاً لهوموم، فإذا فاته شيء من المال، والجاه أو العلم، أو اللذات، أو الصحة، وما إلى ذلك من المطالب التي يشتغل بها طلاب الدنيا، لا يهتم ولا يحزن، لأن أياً منها لا يمثل عنده أهمية تذكر، ففي العمل للمطالب الدنيوية هموم حادثة لا بد لها من عوارض تعرض من خلالها، وتعدُّ ما تعدُّ منها، والعجز عنه لبعض الآفات الكائنة، وأيضاً نتائج سوء نتيج بالحصول على ما حصل عليه، ولذلك فإنه من خلال وحي عقيدتنا الإسلامية، نقول أن الإنسان العربي المسلم بحكم

(1) ابن حزم، المصدر السابق، ص117.

(2) توفيق الطويل، مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، سنة1953م، ص98-100.

(3) سورة الرعد، الآية(35).

أنه نتاج تطور أخلاقي، وبحكم صلته بالله ﷻ يجب ألا يتسرب الهم والحزن إلى نفسه بأي شكل من الأشكال ومن الملاحظ أن هناك الكثير من الغايات والمطالب تسبب الهموم التي تؤثر على الفرد ولا بد لها من مطلب يتم به الحصول عليها ليطردوا به همها، فمثلاً: هم الفقر يتم طرده بالمال وهم اللذات يتم طرده بفوتها، وهم الجهل يتم طرده بالعلم، وهم الجوع يتم طرده بالأكل وهم العطش يتم طرده بالشرب، وهم الشهوة يتم طرده بالنكاح⁽¹⁾، ولو أمعنا النظر فيما سبق لوجدنا أن طرد الهم يُعد مفهوماً أخلاقياً من الدرجة الأولى وهو مغاير للفلسفات الخلقية السابقة، فمن المعتاد عن الفلاسفة الأخلاقيين أنهم يفسرون الغاية من أفعالنا الخلقية بمفهوم إيجابي مثل "اللذة، المنفعة، السعادة" بينما نجد ابن حزم يقول خلافاً لذلك، حيث يُرجع أفعالنا الخلقية إلى الهم الموجود في النفس، وأن الغاية تكمن في طرحه عنها ولذلك فهو غاية في ذاته، فعلى سبيل المثال، فالذي يطلب المال عند ابن حزم ليست الغاية منه الحصول على السعادة ولا اللذة، ولا المنفعة، بل الحقيقة من ذلك عنده هي "طرد الهم" أو ليطرد الإنسان عن نفسه هم الفقر، ولذا فإن تلك الهموم، وما يتولد عنها من هموم حادثة بسبب أو بآخر لا بد منها، تنشأ في النفس مما يتولد عنها الغم والحزن الشديد الذي يُعد المأساة⁽²⁾، وهذا يدل على أن الحزن شيء يجلبه الإنسان لنفسه، وبذلك أصاب ابن حزم بجعله الهم أسبق على الحزن، أي أن الحزن يأتي من الهم، وهذا لم يأتي به أحد من قبله، وهنا يمكننا أن نصنف الهموم التي ذكرها ابن حزم إلى ثلاثة أصناف هي: هموم تظهر بعدم وجود ما يطلب، وهموم تظهر بعجز الإنسان عن الحصول على الطلب، وهموم تظهر بعدم الحصول على الطلب. وهنا نصل إلى وضع قاعدة أساسية مفادها: أنه في كل الأحوال من الصعب طرد الهم، لأنه تتولد عنه في النفس هموم متلاحقة لا تنتهي، ولذلك ينصح ابن حزم إلى تكوين النفس على أسس دينية أخلاقية بحيث لا تطفئ الهموم على المرء، باتجاهه إلى الرغبات الدنيوية المختلفة لأنها تسهم في زيادة الهم بدلاً من طرحه عن النفس، بناءً على ذلك هل هناك أحد يسلم من فوت ما يطلب، وفقدان ما يحب ولا يصيبه الحزن؟

أنه ليس من الممكن ذلك لأن من طبيعة الكون الذي نعيش فيه أنه غير ثابت، وهو عالم الفساد، والتغير، بيد أنه هنالك إمكانية نزال من خلالها السعادة، وبدون فوت المطالبات، وفقد المحبوبات، ويكون ذلك بالاتجاه إلى العالم العقلي "عالم الثبات والاستمرارية" الذي يمكن أن نشاهده بعقولنا وذلك ما أكدته الكندي حين يقول: "إننا نشاهد من يفقد المال، والضياع وجميع ما

(1) ابن حزم، الأخلاق والسیر، ص78.

(2) أفلاطون، رسالة في حقيقة نفي الهم وإثبات الرؤيا، تحقيق د. عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس، بيروت لبنان، ط3، سنة 1972م، ص236.

يقتنيه الإنسان مما يعز عليه، ويحزنه فإنه لا محالة يتسلى، ويفرح، ويزول عنه الحزن، ويعاود أنسه، واغترابه فالعقل إذا نظر إلى أحوال الناس في الحزن وأسبابه علم أنه ليس يختص من بينهم بمصيبة غريبة، ولا يتميز عنهم بمحنة بديعة، وأن غايته من مصيبته السلوى، وأن الحزن مرضٌ عارضٌ يجري مجرى سائر الرذائل يضع لنفسه عارضاً رديئاً، ولم يكتسب مرضاً وضعياً⁽¹⁾، وبعد أن عرفنا أن العقل هو الذي يتذوق السعادة ويصل إليها، ويفضلها على الحزن فهو الذي يأخذ بأخلاق الملوك ولا ينظر إلى أخلاق عامة الناس وصغارهم؛ كما أن بحياة التأمل النظري، وسيطرة العقل، وملكاته يكون الإنسان إنساناً، ويكون قد عرف أقرب الطرق الموصلة إلى الله ﷻ والمحقة للسعادة، يقول الدكتور توفيق الطويل: "تنزع الفلسفة الإسلامية في جملتها إلى تحقيق السعادة، ولما كان العقل هو أكبر ما يميز الإنسان عن الحيوان، قامت السعادة عند جمهرة الإسلام على حياة التأمل من ناحية، وسيطرة العقل على نزوات الجسم من ناحية أخرى، وهكذا نزع الفلسفة الإسلامية في جملتها إلى إقامة السعادة على التأمل العقلي المقرون بالتزهد الروحي، وبهذا يتمكن الإنسان من أن يتصل بربه، وينعم بالسعادة القصوى"⁽²⁾، وهذا يعني أن السعادة قائمة على التصوف المتمثل في التخلي والتحلي، فالسعادة عند الكندي هي: طهارة النفس، فالنفس "بسيطة ذات شرف، وكمال، عظيمة الشأن جوهرها من جوهر الباري ﷻ كقياس ضياء الشمس"⁽³⁾.

كما أنه بالعادة الجميلة، تكون النفس راضية بكل حال، وهذه العادة في نظره ظاهرة موجودة يمكن إدراكها بالنظرة الفاحصة المتأنية في أحوال، ومطالب الناس فتري كل واحد منهم يرى في العادة التي أعتاد عليها أنه يسلك الطريق الصحيح، وأن كل من خالفه في عاداته يعتبر ذا نقص ومصائب، ويضرب الكندي أمثلة على ذلك فمثلاً: الشخص الذي يتمتع بالمأكول، والمشارب والمناكح تجده مسروراً بعاداته، وينظر للآخرين المخالفين له بأنهم حرموا مما يتمتع به ويعتبرهم ذوي نقص ومصائب، ونستنتج من خلال عرض الكندي لوقائع عادات الناس "أن المكروه، والمحبوب الحسي ليس شيئاً في الطبع لازماً بل بالعادة وكثرة الاستعمال"⁽⁴⁾.

وهذا يعني أنه إذا كنا ننال السرور بهذه الطريقة فإن تحصيله يصبح سهلاً، ونستطيع حمل أنفسنا على عادة محمودة نعتاد عليها وتصبح لنا عادة أخلاقية لازمة لهذا فالعادة قد تقوى حتى

(1) مسكويه، تهذيب الأخلاق، تحقيق/ نواف جراح، دار صادر، بيروت لبنان، ط2، سنة 2008م، ص137.

(2) توفيق الطويل، العرب والعلم، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، ط1، (د- ت)، ص373.

(3) الكندي، رسالة في النفس، ضمن رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق/ عبد الهادي أبو ريده، دار النهضة المصرية، القاهرة مصر، ط1، (د- ت) مقدمة رسائل الكندي الفلسفية، ص373.

(4) الكندي، رسالة الحيلة لدفع الأحران، ص15. وكذلك: ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، تحقيق/ سيد عمران وعلي محمد علي، دار الحديث، القاهرة مصر، ط1، سنة 2004م، 1/125.

تغلب حكم الطبيعة، ولهذا قيل: ان "العادة هي طبيعة ثانية"⁽¹⁾، وإلى مثل ذلك يذهب الرازي حيث ينصح كل من يصيبه الغم والهم، والحزن بالسفر الطويل والابتعاد عن الوحدة في مثل هذه الأوضاع، كما يحذره من طول الفكر دون راحة لأن ذلك يضعف البدن وينتج عنه هم وغم، وحزن، كما يؤكد على أن اللذات الدنيوية لأبد أن يسبقها ألم، ومن يظن غير ذلك فهو ضعيف العقل والملاحظة، وقليل الرياضة⁽²⁾، كما أن تنمية العادة يكون أمراً نفسياً وليس جسمىاً ولذلك يكون علاجه نفسياً، وليس جسمىاً لأن "إصلاح النفس، وشفائها من أسقامها أوجب شديداً علينا من إصلاح أجسامنا، فإننا بأنفسنا نحن ما نحن لا بأجسامنا وبالتالي فإصلاح ذواتنا أولى بنا شديداً من إصلاح آلاتنا"⁽³⁾. وما نراه نحن أن النفس لا تحتاج إلا لقوة عزم على عادة أخلاقية لنزوم بها أنفسنا، وتكون عن طريق التدريب عليها بالتدرج على الاعتياد في البداية على الأمر الأصغر، والأبسط ثم على الأكبر، والأعقد حتى تصبح تلك العادة عادة لازمة، ولكن ما الفرق بين مفهوم الحزن عند الكندي، ومفهوم طرد الهم عند ابن حزم؟

- مقارنة بين الحزن، والهم:

هذه المسألة نعالجها من خلال نصين للكندي، ونص لابن حزم لمعرفة وجه التشابه والاختلاف بينهما، حول موضوع الحزن، حيث يرى الكندي أن "الثبات والدوام معدوم في عالم الكون والفساد الذي نحن فيه"⁽⁴⁾، ويذهب كذلك إلى "أن من أحزنه فوت الفائتات، وعدم المعدومات لم ينصرم حزنه أبداً لأنه في كل حال من مدته يفقد محبوباً ويفوته مطلوباً"⁽⁵⁾.

بالتالي فإن "الهم والغم على جميع ما في هذا العالم غير واجبين في الحقيقة، فكل المطلوبات الحسية، ومما يألّفه الطبع يصير سلباً للهم، ومسبباً للحزن، وإن كان كثير من الناس طالبيه، ومن طالبي حقيقة، بل باطل ومحال، ولكي لا نصاب بالهم والحزن علينا برأس السياسة وهو: "ترك إتباع الشهوات والهوى، وقمع النفس عن الهوى، وباطل الأمانى، وكاذب المواعيد ولا بد من قطع المدة، وبلوغ الغاية فمن سامح هواه، ونفسه ندم، ومن تدبر بتدبير العقل رشد ومن سمع

(1) المرجع السابق، 125/1.

(2) عبد اللطيف العبد، فلسفة أبي بكر الرازي، رسالة دكتوراه، إشراف/ د: محمد كمال، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم،

قسم الفلسفة، سنة 1975م، ص 403.

(3) الكندي، رسالة الحيلة لدفع الأحزان، ص 11.

(4) الكندي، رسالة الحيلة لدفع الأحزان، ص 7.

(5) المرجع السابق، ص 9.

الوعظ والحكمة ثم لم يعمل بهما كانا شاهدين عليه، ومحجوباً بها⁽¹⁾، ويذهب ابن حزم إلى الدلالة نفسها بقوله: "إذا تعقبت الأمور الدنيوية كلها فسدت عليك، وانتهيت في آخر فكرتك باضمحلال جميع أحوال الدنيا، إلا أن الحقيقة إنما هي العمل للآخرة فقط، لأن كل أمل ظفرت به فعقباه حزنٌ، إما بذهابه عنك، وإما بذهابك عنه، ولا بد من أحد هذين السبيلين، إلا العمل لله ﷻ فعقباه على كل حال سرور في عاجل وآجل، فالعاجل قلة الهم بما يهتم به الناس وإنك به معظم من العدو، والصديق، وأما في الآجل فالجنة"⁽²⁾، ولأن القلب الذي وجه قصده وإرادته إلى اللذات لا يزال مستغرقاً في الهموم والغموم والأحزان، وما يناله من اللذات في جنب هذه الآلام كقطرة في بحر فيكون سروره وزن حبة وحزنه قنطار"⁽³⁾، والذي نستنبطه من هذين النصين للكندي: أن سبب أحزاننا هو الاتجاه للعالم الحسي "عالم الفساد والتغير" عن طريق تعلقنا به بامتلاك المطلوبات الحسية، وهذا طريق عنده لا يؤدي في كل الأحوال إلى القضاء على أحزاننا لأن من طبيعة حال المرء أن يفوته مطلوب، ويفقد محبوب، وإذا ما قارنا معنى هذين النصين مع نص ابن حزم لاتضح لنا من الوهلة الأولى: أن معنى النص الأول للكندي والذي افترض فيه عدم الثبات والدوام في العالم الحسي، هو المعنى نفسه الذي افترضه ابن حزم، وهو فساد كل الأحوال الدنيوية، غير أنه تجدر الإشارة إلى أن الكندي قد برهن بالتفصيل على فرضيته قبل أن يصل إلى النص الثاني، والذي هو نتيجة مباشرة من بطلان الاتجاه إلى العالم الحسي من خلال التعلق به بامتلاك المطلوبات والمحجوبات الحسية، بينما دخل ابن حزم مباشرة من فرضية تؤدي إلى الحزن ولأن كل أمل ظفر به المرء في الدنيا، من غير التوجه إلى الله ﷻ بالعمل للآخرة يكون عقباه حزن.

ومن خلال تحليل النصوص للفيلسوفين نلاحظ أنهما يتفقان في النتيجة وهي: مفهوم الحزن، من حيث أنه لا ينتهي ما دام المرء يتعلق بالأشياء المادية، وهذا إن دلنا على شيء فإنما يدلنا على أن ابن حزم يطلب منا ألا نبتعد عما أقرته شريعتنا السمحاء وهو الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره والذي يُعد ركن من أركان الإيمان، ولكن من المرجح أن ابن حزم كان أسلوبه أشمل وأدق من الكندي، فقد رأى الأخير أن سبب أحزاننا هو عارض لفوت المطلوب، وفقد المحبوب، في حين يذهب ابن حزم إلى أن المرء لا يقتصر على فوت المطلوب وفقد المحبوب فقط، وهاهنا يُخيل إلينا أنه يدخل في حوار مع نص الكندي ويخاطبه: إن كل أمل ظفرت به فعقباه حزن، فضلاً عن ذلك أنه

(1) أفلاطون، رسالة في نفي الهم والغم، ص242- 243، وانظر كذلك ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان، تحقيق/ محمد الكيلاني، دار التراث العربي، القاهرة مصر، ط2، سنة1972م، 26/1.

(2) ابن حزم، الأخلاق والسر، ص85.

(3) ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ص171.

حدد الكيفية التي بها يتم حدوثه فيقول: "إما بذهابه عنك، وإما بذهابك عنه"⁽¹⁾، وأما الكندي فقد اكتفى في نتيجته إلى أنه من طبيعة المرء أن يفوته مطلوب ويفقد محبوب. ثم تنتقل بالمقارنة إلى مسألة أخرى تتركز على محاولة معرفة العلاقة بين مفهوم الحزن والهم، والتي رأينا من خلالها نظرة الكندي إلى العالم الحقيقي، والذي تحدث عنه بنصوص توضح كيفية الاتجاه له، بامتلاك المطلوبات والمحوبات بالعقل، ومن ثم يمكن التخلص من الحزن، والحصول على دوام السرور، ولكي يمكننا مقارنة هذا المعنى مع نص ابن حزم فإنه من الأجدر بنا إضافة نصين للكندي وهما: يقول: فإن أحببنا ألا نفقد محبوباتنا، وألا تفوتنا طلباتنا فينبغي أن نشاهد العالم العقلي، ونصير محبوباتنا، وإرادتنا منه"⁽²⁾، ويذهب في النص الآخر إلى "أنه ينبغي إذاً أن نحصر على أن نكون سعداء، وأن نحترس من أن نكون أشقياء، بأن تكون إرادتنا ومحبوباتنا ما تهياً لنا، ولا نأس على فائتة، ولا نطلب غير المتهى من المحسوسات"⁽³⁾ ويمكننا هنا أن نستنتج من النصوص إذا ما أخذنا في عين الاعتبار اختلاف التصور بينهما حول مفهوم العقل، على أنهما يتفقان على أن الحزن ليس موجوداً في طبع النفس⁽⁴⁾ ويمكن للإنسان التخلص منه، وبذلك ينال السعادة، إذا لم يتعلق بالأشياء المادية، وإذا تعلق بها يخضعها إلى عقله، وذلك بالأخذ منها بقدر حاجة النفس إليها، ومن خلال التدقيق في الجانب النظري لرسالة الكندي في "الحيلة لدفع الأحزان"، والجانب النظري لرسالة "الأخلاق والسير وفصل مداواة النفوس، وإصلاح الأخلاق الذميمة" لابن حزم يتبين لنا أن هنالك اختلافات دقيقة نوجزها في الآتي:

(أ) غلبة الطابع الفلسفي على الكندي، أثناء تناوله لمفهوم الحزن، في مقابل غلبة الطابع الديني الأخلاقي على ابن حزم أثناء تناوله لمفهوم الهم، وهذا التباين مصدره اختلاف المنطلقات الفكرية لكليهما، فالكندي فيلسوف يغلب عليه الجانب العقلي، أما ابن حزم فهو فيلسوف يغلب عليه الجانب الديني.

(ب) قد لاحظنا فيما سبق أن ابن حزم في عرضه لمفهوم الهم كان أكثر تحليلاً وعمقاً في النفس من الكندي، فالأخير قد بين مفهومه من خلال أسبابه العارضة المتمثلة في فوت المطلوبات الحسية، ولم يتطرق إلى تحليل الفعل الإنساني الأخلاقي كإبن حزم لأن الناس في نظره جميعاً يقودهم هدف واحد هو طرد الهم، وهنا نجد أن ابن حزم يقترب بفكرة هذا إلى نظرية "الغرائز" السائدة لدى رجال المدرسة النفسية، باعتبار أن الحياة الاجتماعية

(1) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص75.

(2) الكندي، رسالة الحيلة لدفع الأحزان، ص7.

(3) المرجع السابق، ص9. وهذا ما يلزمنا اليوم، وفي حياتنا اليومية.

(4) نستدل من ذلك: على أن العلل وأمراض النفوس مكتسبة وليست فطرية فالإنسان هو الذي يجتلبها لنفسه.

تقوم على محورين أحدهما: موجب وهو الطمع، والآخر: سالب، وهو الهم، وهذا ما جعل أحد الباحثين⁽¹⁾ يقول: إن ابن حزم يقترب في بعض نظراته الاجتماعية من رجال المدرسة النفسية فنظرية "الطمع" تشبه إلى حد كبير ما يقال عن نظرية "الفرائز" وأثرها، بل إن اتخاذ اسم واحد للدوافع في نفس الفرد يقترب من رأي سيجموند فرويد في حصره جميع الطاقات الغريزية في الإنسان تحت اسم "ليبدو" أما طرد الهم: فيمكن أن يشتمل على ما يسمى في علم النفس الجماعي "بالصراع النفسي والاجتماعي"، وهذان النوعان من الصراع قد يحوي أحدهما الآخر وقد يستقل عنه، ولكن في الربط بين طرد الهم، وفكرة التوجه إلى الله يقترب ابن حزم من فكرة "الصراع الاجتماعي" الذي يتمثل في توجيه الرغبات الدنيوية نحو غاية مثالية⁽²⁾.

(ج) من الممكن أن نجعل فصل "مداواة النفوس" من رسالة ابن حزم في الأخلاق، يأخذ اتجاهاً مغايراً لرسالة الكندي، فمن خلال التدقيق في نص ابن حزم: "قللة الهم بما يهتم به الناس"⁽³⁾ والذي يعني أن الهم هو السبب الذي يوجه المرء إلى طلبه بقدر الاهتمام به، وبمقارنته هاهنا مع مفهوم الحزن تبلورت عندنا فكرة مهمة، مفادها: أن ابن حزم قد سبق الهم على الحزن فليس عنده علاقة مباشرة بين الحزن وفوت المطلوب، بقدر الاهتمام به أي أن الحزن يأتي من الهم، مما يوحي بأنه قد استعمله بمبدأ الإرادة، وبالتالي فإن مفهوم الهم يختلف عن مفهوم الحزن فضلاً عن ذلك حينما سبقه ابن حزم بالطرد "طرد الهم" جعله ركيزة أساسية في تفسير أفعالنا الخلقية؛ وبذلك فلا ابن حزم سبق، والريادة عندما سبق الهم على الحزن، وذلك يعني أن الحزن يأتي من تراكم الهموم، وهذا أمر لم يفتن له الكندي، وكان ذلك المحور الأساسي لمداواة النفوس لما شكله من منظومة أخلاقية، وهذا بدوره يجعلنا نقول: أن ابن حزم له مقصد يرمي إليه عن مفهومه للهم، وهذا ما شجعنا إلى مواصلة البحث، والتتقيب عن علاقة نص ابن حزم وهو: "قللة الهم بما يهتم به الناس"⁽⁴⁾.

(1) ابن حزم، رسالة مداواة النفوس، تحقيق/الدكتور إحسان عباس، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، سنة 1987م، مقدمة رسالة مداواة النفوس، ص327.

(2) مقدمة رسالة مداواة النفوس، ص327.

(3) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص76.

(4) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص76.

- المبحث الثاني: آفة الهم وآليات طرده:

أولاً: آفة الهم: تتكون الأمراض النفسية نتيجة ضغوط ونزعات معينة تنشأ عنها صرعات داخلية تؤدي إلى اعتلال النفس، وهذا الاعتلال هو المرض النفسي، والشخص الذي يكون مريضاً نفسياً يكون إدراكه لنفسه وللواقع إدراكاً مختلاً مشوهاً، ويصبح سلوكه غير مألوف ومن هنا يشعر الإنسان بالاضطرابات النفسية والآلام الجسدية فتخيم على حياته أجواء من الهم والغم، وهذه بدورها تؤدي إلى إصدار أحكام غير سليمة، بسبب الصراعات النفسية الدفينة التي تؤدي إلى معاناته، وأشد هذه المعاناة الهم، فالهم: هو: "تقسم الأفكار، وحيرة النفس، وخمولها وهو سريع الانتقال والزوال"⁽¹⁾، فالهم: هو آفة لا يكاد يسلم منها إنسان، فبالرغم من أن الله ﷻ تكفل له برزقه، وحدد أجله، وخاتمته، فهو في هم دائم، في طلب الدنيا، يسعى سعي من لا يكل ولا يمل، وما ملك منها شيئاً إلا طمعت نفسه إلى المزيد، والمستفاد مما سبق هو أن الإنسان يخشى الموت إذا أصبح وأمسى رغم إيمانه، وإذا وهبه الله ﷻ الهداية فهو في هم من الآخرة لا يدري ماذا يفعل به، وإذا كان من ذوي الأملاك والأطيان فهو في هم خوف زوالها، وكثيراً ما نجده اليوم واضعاً لدى الحساد، فهم لا يرون نعمة إلا تمنوا زوالها عن صاحبها ولذلك يوصينا رسولنا الكريم ﷺ بأن نقول كل صباح ومساءً: {اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ومن العجز والكسل}⁽²⁾، ثم يحدد ابن حزم هنا الهدف النهائي من الحياة الأخلاقية وهو أن يكون بطرد الهم عن النفس وإحلاله محل السعادة، فنظرية السعادة تعرضت للنقد واختلفت وجهات النظر فيها، بينما هو يرى أن طرد الهم فكرة قابلة، وصالحة للتطبيق في كل زمان ومكان، والناس على جميع أجناسهم ومعتقداتهم سيسعون إلى بلوغ هذا الهدف⁽³⁾، (طرد الهم) ويعني بذلك دفع الألم النفسي الذي يخلفه الهم في نفس المريض به، وبعد أن قام ابن حزم بدراسة النفس وكمائناتها وصل إلى قاعدة هامة مفادها أن "الناس كلهم متساوون في استحسانه وفي طلبه فلم أجده إلا واحداً وهو طرد الهم، فلما تدبرته علمت أن الناس كلهم لم يستووا في استحسانه فقط ولكن رثتهم لا يتحركون حركة أصلاً إلا فيما يرجون به طرد الهم، ولا ينطقون بكلمة أصلاً إلا فيما يعانون من إزاحته عن أنفسهم"⁽⁴⁾، والمستفاد من النص السابق هو أن الناس متفقون في كل المعمورة، العالم والجاهل، الصالح والطالح، في طرد الهم عن أنفسهم، وهو يقول في ذلك: "بحثت عن سبيل موصلة على الحقيقة إلى طرد الهم الذي هو المطلوب

(2) أفلاطون، رسالة في نفي الهم والغم، ص236.

(2) ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، 227/5.

(3) حامد طاهر، الخطاب الأخلاقي في الحضارة الإسلامية بين الحاضر والماضي، دار نهضة مصر القاهرة مصر، ط1،

سنة 2006م، ص113.

(4) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص76.

النفيس للنفس" ⁽¹⁾ ولذا يعتبر ابن حزم أن العمل للأخرة من أفضل الوسائل الناجحة لطرد الهم كلياً عن النفس ولا يتم ذلك إلا بطريقة واحدة ألا وهي التوجه إلى الله ﷻ قلباً وقالباً، لأنه ليس هناك إلا "مطلوب واحد، وهو طرد الهم، وليس إليه إلا طريق واحد، وهو العمل للأخرة، إتباعاً لقوله ﷻ: {وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ} ⁽²⁾ وما عدا ذلك فيُعد ضللاً، وسخفاً" ⁽³⁾، وهذا يدلنا على أن من "اهتمّ بعمل خير نفعته همته، لأنه يثاب عليه" ⁽⁴⁾، ولكن ما هي أسباب الهم؟

ثانياً: أسباب الهم: للهم والحزن الذي يصيب الإنسان ويبعده عن السعادة سببان هما: أن نحرم كل ما نشتهي، أو يحدث ما نخشاه، ونضيف إليها سبباً ثالثاً، ولعله الأهم وهو: الابتعاد عن التمسك بالقدوة المهداة وهو سيدنا محمد ﷺ وقلة الإيمان الكامل، ولقد اتفق ابن حزم مع الغزالي في أن نقطة الانطلاق للبحث عن طرد الهم والسعادة وهي العلم بالنفس الإنسانية بالإضافة إلى ذلك كثرة المقتنيات والمحوبات والتعلق بالدنيا الزائلة، كما أن من أسباب الهم والغم أن يفكر الإنسان في نفسه ومصالحته، دون أن يراعي غيره، وكذلك الخوف من كلام الناس، وما أكثره في عصرنا هذا، حيث تجد المرء لا يخاف الله ﷻ ويخشى كلام الناس عليه، فيوضح لنا ابن حزم الكيفية المثلى للتخلص من هذا العائق، وما يسببه من حيرة وقلق في النفس، وعليه فإن أفضل طريقة للتخلص من هذا المرض يكون بطرح المبالاة بكلام الناس واستعمال المبالاة بكلام الله ﷻ، وإذا فعل المرء ذلك فإنه يصل إلى أعظم أبواب العقل والراحة ويدلل ابن حزم على ذلك بقوله: "إنه لا يسلم أحد من كلام الناس إلا مجنون، وإن كان لا مفر من كلامهم سواء كان بالمدح أو بالذم فمن الحسن أن يؤثر الذم على المدح" ⁽⁵⁾، وهكذا يتضح لنا أن: مفهوم طرد الهم يشكل المحور الرئيسي لهذه المداواة، وفكرة العمل للأخرة السائدة في جلّ مؤلفاته، قد تجلت بمفهومه لطرد الهم الذي يُعد بمثابة منظومة أخلاقية متكاملة، وعلى ذلك فالهم إذن داء ضار بالإنسان ولا بد أن يحاول جاهداً أن يطرده عن نفسه ما استطاع وإلا وقع فريسة له فأقعه عن المعالي، لذلك تناولنا هذه القضية المؤثرة على نفس الإنسان، وما أحوجنا اليوم أكثر مما مضى إلى العناية بأنفسنا وتحسينها من الشبهات المضلة والشهوات المفسدة.

(1) المصدر السابق، ص78.

(2) سورة النحل، الآية(30).

(3) ابن حزم، المصدر السابق، ص78.

(4) ابن الجوزي، الطب الروحاني، تحقيق/محمد السعيد بسيوني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة مصر، ط1، سنة1986م ص42.

(5) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص81.

ثالثاً - آليات علاج وطرد الهم:

أ) العمل للآخرة:

تأسيساً على ذلك يرى ابن حزم: "أن العمل للآخرة يُعد سالماً من كل عيب خالصاً من كل كدر، وأنه موصل إلى طرد الهم عن الحقيقة، وعليه فإن فكرة العمل للآخرة تُعد فكرة دينية مسيطرة على معظم مؤلفات ابن حزم، ولها علاقة وثيقة بما يذكره عن نظرية طرد الهم، فإن فكرة العمل للآخرة المسيطرة على جلّ مؤلفاته، وهو لا يعتمد على النقل فقط في إثباتها، وإنما يعمل على إثباتها بالعقل أيضاً، فهو في نظرنا لا يحجب عقله حينما يريد أن يبرهن على الحقائق الدينية، وهو قد بين أن طرد الهم عن النفس غاية واحدة لكل الناس، وليس هذا فقط بل دعم كل ذلك ليفسر به حركة أفعالهم، ومطالبهم الدنيوية، ولذا فإن العمل للآخرة عند ابن حزم يُعد خالياً من كل العيوب، وموصلاً إلى طرد الهم على الحقيقة بإذن الله ﷻ، ويدل على ذلك أيضاً باستقراءه للواقع ومشاهدته فيقول: "وجدت العامل للآخرة إن امتحن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم بل يُسر إذ رجاؤه في عاقبة ما ينال به عون له على ما يطلب وزائد في الغرض الذي إياه يقصد، ووجدته إن عاقه عما هو بسبيله عائق لم يهتم، إذ ليس مؤاخذاً بذلك فهو غير مؤثر فيما يطلب ورأيت أنه قصد بالأذى سر، وإن نكبتة نكبة سر، وإن تعب فيما يسلك فيه سر فهو في سرور متصل أبداً، وغيره بخلاف ذلك أبداً"⁽¹⁾.

ب) تكوين النفس على أسس دينية أخلاقية:

بحيث لا تطفئ الهموم على المرء باتجاهه إلى الرغبات الدنيوية لأنها تسهم في زيادة الهموم بدلا من طردها عن النفس، وبالتالي فهي أصل كل هم، فهذه الحياة وملذاتها فانية ولا يبقى إلا العمل الصالح المتمثل في العمل للآخرة، كما إن من طبيعة الحياة الدنيا الهم والغم التي يصيب الإنسان، فهي دار البلاء والشدة والضنك، ولهذا كان مما تميزت به الجنة عن الدنيا أنه ليس فيها هم ولا غم قال ﷺ: «لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ»⁽²⁾، وأهلها لا تتكدر خواطرهم ولا بكلمة قال ﷺ: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا»⁽³⁾، وطبيعة الحياة الدنيا المعاناة التي يواجهها الإنسان في ظروفه المختلفة وأحواله المتنوعة، كما دل عليه قول الحق ﷻ: «لَقَدْ خَلَقْنَا

(1) المصدر السابق، ص79.

(2) سورة الحجر الآية، (48).

(3) سورة الواقعة الآية، (25 - 26).

الإِنْسَانَ فِي كَبَرٍ⁽¹⁾، الإنسان في كبد، فهو في حزن على ما مضى، مهموم بما يستقبل، مغموم في الحال.

ج) علاج أفة الهم من النفس:

إن علاج النفس لا يحتاج إلى دواء مشروب ولا حديد، ولا نار، ولا قطع أعضاء، ولا كلفة من الأموال وإنما يحتاج فقط إلى قوة عزيمة، وعلى عادة أخلاقية نلزم بها أنفسنا، وتكون تلك العادة عن طريق التدريب عليها بالتدرج وعلى الاعتماد منذ البداية على الأمر الأصغر، والأبسط حتى يسهل على المرء أن يعتاد، وتصير عادة لازمة له ثم يرتقي بها إلى الأمر الأكبر والأعقد، وتصبح بالاعتقاد عادة يرتقي بها إلى ما هو أكبر من ذلك وتكون بذلك عادة أخلاقية سهلة ويسهل بذلك الصبر على الفاتئات والسلوى عن المفقودات⁽²⁾ وبهذه الطريقة المتمثلة في تنمية العادة يرى الكندي أنه يمكننا أن نصبر على فوات الفاتئات وفقد المحبوبات، والتي يتم من خلالها تكوين فضيلة أخلاقية لأنفسنا ندفع بها عنا ألم الحزن⁽³⁾ تأسيساً على ذلك يصبح المكروه والأذى الذي يتعرض له الإنسان ويلحقه باتجاهه إلى المطلوبات الدنيوية عوناً ودافعاً له للعمل للآخرة، وبالتالي لا يصبح الهمّ همّاً بقدر ما هو سرور لأن الإنسان هنا يؤثر الأجر على الطلب الدنيوي، وعليه يصبح العمل للآخرة وسيلة لما يريده الإنسان في الدنيا، وهكذا نجد أنه استنتج من مفهومه لطرد الهمّ مطلباً واحداً ألا وهو إزاحته عن النفس، وأنه "لا توجد طريق لذلك ألا التوجه إلى الله ﷻ بالعمل للآخرة فما عداه ضلال وسخف"⁽⁴⁾، كما أن فكرة التوجه إلى الله ﷻ بالعمل للآخرة يُعد الطريق الوحيد الموصل إلى حقيقة طرد الهمّ، وهذا السبيل يُعد علاجاً جامعاً مانعاً للهمّ، وأنه السبيل الوحيد الذي يقتلع الهمّ من جذوره، وهو الغاية السليمة التي يمكن للمرء أن يسعى إليها مطمئناً، وهذا لا يعني انتفاء الهموم في النفس بقدر ما هو توحيد الهموم في همّ واحد ألا وهو "همّ الآخرة" إتباعاً لقول رسولنا الكريم ﷺ: {من كان كل همه الآخرة جمع الله شمله}⁽⁵⁾، وقوله ﷺ {لا عيش إلا عيش الآخرة}⁽⁶⁾، وهنا نتفق مع ابن حزم الذي يرى أن: "هذه الطريق مؤذية إلى الإقرار بنبوّة محمد ﷺ وموجبة لطلبنا في القرآن من عهود الله ﷻ وطلب عهوده ﷻ وتمييز صحيحهما مما لا يصح منهما، والأخذ بكل ذلك والتمسك به"⁽⁷⁾.

(1) سورة البلد الآية، (4).

(2) الكندي، رسالة الحيلة لدفع الأحزان، ص12.

(3) المرجع السابق، ص11-12.

(4) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص80.

(5) أخرجه الترمذي، في الجامع الصحيح لسننه، تحقيق، إبراهيم عطوة، 4/624.

(6) صحيح مسلم بشرح النووي، دار عالم الكتب، الرياض السعودية، ط1، سنة2003م، كتاب الجهاد 182/11.

(7) ابن حزم، رسالة مراتب العلوم، مصدر سابق، 4/74.

د- كيفية العمل لطرد الهم عن النفس: وبعد ما برهن ابن حزم بمفهومه لطرد الهم "لذة العامل للآخرة" يضع مجموعة من الحكم والنصائح الأخلاقية التي يبين فيها الكيفية العملية لإزاحة الهم عن طريق العمل للآخرة، والذي نلاحظه هنا هو أن ابن حزم يستعمل في حكمه ونصائحه العملية برهان الخلف، وذلك بنقده للأمور الدنيوية، وإثبات فكرة العمل للآخرة لتسير مع نفس سياق الإطار النظري السابق، فيبدأ ابن حزم مستهلاً بحث المرء على أن بذل النفس لا يكون إلا في ذات الله ﷻ وذلك من خلال عمله في الدنيا من دعاء إلى الحق، وفي حماية الحريم، وفي دفع الهوان الذي لم يوجبه الله، أما إذا ما حط المرء من قدر نفسه وبذلها في عرض الدنيا فإن ابن حزم يشبهه "ببائع الياقوت بالحصي"، ولذلك يرى أنه من الأجدي للمرء أن يبذل نفسه في شيء ثمين ونفيس أزلي ألا وهو الجنة؛ على شيء رخيص وزائل من متاع الدنيا الفانية، فالعاقل لا يرى لنفسه ثمناً إلا الجنة⁽¹⁾، كما أنه ينبغي للحازم أن يحترز مما يجلب الهم والغم، وجالبة المحبوب فمن كثرت محبوباته، كثرت هممه، ومن قللتها قل هممه، فيجب على العاقل تقليل الألفة⁽²⁾.

الخاتمة: لقد أثبت الدراسة النتائج الآتية:

- 1- أثبتت الدراسة أن للسعادة القصوى وطرد الهم وسائل لا تنال إلا بها، تتمثل في تحصيل المعارف الربانية والتخلق بالأخلاق الفاضلة، والمداومة عليها، وعلى ذكر الله ﷻ والانقطاع عن الأخلاق المذمومة والردائل، وايضاً أن طرد الهم غاية قصوى يسعى البشر جميعاً إليها، وبالتالي فالهم شر يسعى الإنسان للخلاص منه، وعلة الشر هي الطمع لأن الطمع هو سبب كل هم.
- 2- أثبتت الدراسة أن الهم من الأمراض النفسية مثلها، وأن أقوى علاج لآفات النفس هو العلاج بالضد، والإيمان بالله تعالى إذا ثبت في نفس الإنسان فإنه يكسبه مناعة ووقاية من الإصابة بالأمراض النفسية.
- 3- أثبتت الدراسة أن موضوع الهم من أهم الموضوعات المتصلة بالنفس الإنسانية، وأن ابن حزم جاء بآراء صريحة ودقيقة في السعادة وعلاقتها بالهم، وأنه تكلم عن السعادة الدنيوية والأخروية، واهتم بالسعادة في الحياة الأخروية أكثر، مع عدم إهمال السعادة الدنيوية على اعتبار أن الشريعة أوضحتها ومثلت لها خير تمثيل وهذا هو الجانب الغامض الذي يتمثل في السعادة الروحية في الآخرة وجعلها الأفضل والأدوم، ولذا فعلى الإنسان أن يعمل لآخرته، وعليه فإن السعادة الأخروية هي السعادة الحقيقية، وهي الجديرة بالسعي والعمل لها ولا ينبغي للإنسان أن يصاب بالهم إذا حرم من نعم الدنيا،

(¹) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص80.

(²) ابن الجوزي، الطب الروحاني، ص42.

لأن الله ﷻ سيعوضه في الدنيا بنعم أخرى وفي الآخرة الجنة، وأن هذه السعادة موقوفة على أسباب أهمها الإيمان بالله وتوحيده، ثم العمل الصالح وكذلك بأسبابها التي شرعها الله. ويوصي الباحث بعقد مؤتمرات علمية ومحاضرات توعوية عن النفس الإنسانية وما يعتريها من همّ، وحزن، وكيفية علاج النفس من الهمّ الذي يصيبها بسبب مطلوبات زائلة لا محالة وخاصة أننا نعيش عصر الهمّ والحزن، العصر الذي طغت فيه الماديات على الروحانيات وكثرت فيه الرذائل عن الأخلاقيات، والفضائل، وانتشرت فيه الرذائل وانطمست فيه الفضائل وطغت فيه العوالة بالانفتاح الثقافي والمعرفي، ولذا فإننا في حاجة ماسة إلى مثل هذا النوع من الدراسات في الوقت بالذات، ورفض المناهج العلمانية المستوردة من الغرب البعيدة عن كل البعد عن الأخلاق الإسلامية، وتسليط الضوء على طبيعة النفس الإنسانية وآفات وعلاجها من الأمراض التي تعترئها، والتي تمنعها من الوصول إلى السعادة، وذلك بالإصلاح الخُلقي للنفس.

والحمد لله رب العالمين

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن وكتب السنة:
- ابن ماجه، السنن، تحقيق، فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط1 (د، ت).
- الترمذي السنن، تحقيق/ أحمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط1، (د، ت).
- الحاكم الترمذي، في الجامع الصحيح لسننه، تحقيق، إبراهيم الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، سنة 1991م.
- صحيح مسلم بشرح النووي، دار عالم الكتب، الرياض السعودية، ط1، سنة 2003م.
- 1- ابن حزم الأندلسي، الأخلاق والسير، تحقيق/ ايفا رياض، دار ابن حزم، بيروت لبنان، ط3، سنة 2009م.
- رسالة مداواة النفوس، تحقيق/ احسان عباس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت لبنان، سنة 1987م.
- رسالة مراتب العلوم، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق/ الدكتور إحسان عباس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، لبنان، سنة 1987م.
- 2- ابن الجوزي، ابن الجوزي، الطب الروحاني، تحقيق/ محمد السعيد بسيوني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة مصر، ط1، سنة 1986م.
- 3- ابن القيم الجوزيه، إعلام الموقعين، مكتبة الكليات الجامعية، القاهرة، مصر، ط1، 1986م.
- الجواب الكافي، تحقيق/ زكريا عمران، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1997 م.
- مفتاح دار السعادة، تحقيق/ سيد عمران وعلي محمد علي، دار الحديث، القاهرة مصر، ط1، سنة 2004م.
- إغاثة اللهفان، تحقيق/ محمد السيد الكيلاني، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، ط2، سنة 2006م.
- 4- ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت لبنان، ط2، سنة 1992م.
- 5- أبو البقاء الحسيني، الكليات، تحقيق/ محمد المصري، وعدنان دروش، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ط1، سنة 1998م.

- 6- إميل برهيه، تاريخ الفلسفة، ترجمة/ جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، سنة 1981م.
- 7- أفلاطون، رسالة في حقيقة نفي الهم وإثبات الرؤيا، تحقيق د، عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس، بيروت لبنان، ط3، سنة 1972م.
- 8- الأصفهاني، الذريعة لمكارم الأخلاق والشريعة، دار الوفاء، مصر، ط1، سنة 1985م.
- 9- التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، مكتبة لبنان، بيروت لبنان، ط2، سنة 1996م.
- 10- توفيق الطويل، العرب والعلم، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، ط1، (د- ت).
- مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، سنة 1953م.
- 11- الجرجاني، التعريفات، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، سنة 2005م.
- 12- حامد طاهر، الخطاب الأخلاقي في الحضارة الإسلامية بين الحاضر والماضي، دار نهضة مصر القاهرة مصر، ط1، سنة 2006م.
- 13- سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، منشورات دار العلم، بيروت لبنان، ط1، سنة 1981م.
- 14- الفارابي، التنبيه على سبيل السعادة، / وتحقيق/ سحبان خليفات، الجامعة الأردنية، عمان، ط1، سنة 1987م.
- 15- العامري، السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية، دراسة وتحقيق/ د.أحمد عبد الحليم عطية، دار الثقافة، القاهرة مصر، 1991م.
- 16- عبد اللطيف العبد، فلسفة أبي بكر الرازي، رسالة دكتوراه، إشراف/ د: محمد كمال، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، قسم الفلسفة، سنة 1975م.
- 17- الكندي، رسالة في النفس، ضمن رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق/أعبد الهادي أبو ريده، دار النهضة المصرية، القاهرة مصر، ط1، (د- ت).
- 18- رسالة الحيلة لدفع الحزن، تحقيق/ عبد الرحمن بدوي، منشورات الجامعة اللبنانية، بنغازي ليبيا، ط3، سنة 1973م.
- 19- مابوت، مقدمة في الأخلاق، ترجمة الدكتور، ماهر عبد القادر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ط1، 1977م.
- 20- مسكويه، تهذيب الأخلاق، تحقيق/ نواف الجراح، دار صادر، بيروت لبنان، ط2، سنة 2007م.